عمارتنا المستدامة : نحو تفعيل صورة العمارة المستجدة بملامح العمارة الموروثة

Our sustainable architecture: towards the activation of the image of a new architecture with characteristics of the inherited architecture

أ. م. د/ زينب قندوز غربال

أستاذ مساعد للتعليم العالي في التصميم، اختصاص هندسة معمارية داخلية بالمعهد العالي للفنون الجميلة بسوسة.

Assist. Prof. Dr. Zainab Kunduz Ghorbal

Assistant Professor of Higher Education in Design, specializing in interior architecture at the Higher Institute of Fine Arts of Sousse

gandouzzeineb@yahoo.fr

الملخص:

يُعدّ ماضي العمارة بعض ماهيتها وبعض تجلّيها الحاضر، فالعلاقة المقترحة بين جديد العمارة وقديمها توجب أن نقف على ما يريد الجديد أن يستعيده من القديم، وما يمكن أن يبلغه في حالة مفارقته. لعلّ العودة إلى الماضي لا تتوقف عند مجال التذكير والعبرة بإطار العمارة التقليدي، بل أنها في الكثير من الأحيان تكون بمثابة الوسيلة الناجعة لحفز العلاقات في الحاضر، والعمل على تركيز وجودها في ماضي الجماعة، كأصل فاعل غير مستحدث ليكون حضور الماضي وظهوره انطلاقاً مع محفزات الحاضر.

وعليه، تعتبر العمارة التقليدية بالجنوب التونسي (سكن الواحات نموذجا) طاقة تشكيلية كامنة في معمار مُتستّر. بناءٌ يكتنه الواقع بكلّ تشابكاته وأبعاده المتعالقة، فأصْنَفَ المعمار التقليدي سكنا، وطريقة عيش، وأظهر قدرة على التكيّف مع المحيط، بأن توافق شكل الصّروح مع محيطها والحاجيات الاجتماعية والمطالب الوظيفية.

لعلّ سبر هذا الأثر تحليلا وجمع تشكيلاته توثيقا أمر مستطاع لكن السؤال المطروح: **ماذا بعد القراءة والحصر والجمع والتحليل والتوثيق؟** لقد تبيّن ومن خلال معالجة اشكالية التعامل مع الأفضية السكنية التقليدية، أن نجاح تقييم الواقع الحاضر لهذه المساكن يكون بتحديد مواطن الخلل ومعالجتها. فخطة إعادة التأهيل لا تهدف فقط إلى إعطاء الحلول بل توفّر إمكانات تستقري ما يمكن له أن يكون بعد تطبيق هذه الحلول. فما تركه الأجداد يُعدّ ارثا حضاريا وجماليا وفلسفيا وابداعيا والمجهود العلمي والتقني لا يمكن له أن يلغي بحق ما خلّفه الأجداد من تجارب وخبرات، كَونَ البيئة التي جاءت وتشكلت عبر خبرات متراكمة لأجيال عديدة لم تتشكل عبثا، بل كانت هناك قوانين وأعراف تحكم المنظومة الحضرية بكافة تفاصيلها. إن النظرة لهذا الإرث تتخطى الحنين إلى الماضي، إلى التمعن فيه برؤى واقعية.

في الزّمن الحاضر، أين السّكن المُحدثْ من الذّاكرة؟ ما مدى امكانية تفعيل المخزون الذاكراتي على محامل الحاضر؟

استفهامات تُحدّد الإشكالية الرئيسة المؤثثة لورقتنا العلمية والمتمثلة في استنتاج الكيفية التي نستطيع عبرها تكوين تصوّر شامل لفهم الفكر الذي نتج عنه ذلك المعمار، من أجل إقرار إمكانات أخرى في التعامل مع هذا التراث المعماري كصرح ذاكراتي حي. معمارٌ حقّق مفهوم الاستدامة في الزمن الماضي ليكون شاهدا على توافق السكن والساكن ولا يزال. العمل البحثي هو دعوة مفتوحة إلى التمكّن من الماضي، في إعادة استحضاره وإيوائه وتجديده. ومن هنا تتولّد الرّغبة في العمارة المحدثة أن تحتفظ بالقديم وتستعيد في الجديد ما هو قديم ليتجدّد ويستديم. إن العلاقة المقترحة بين جديد العمارة وقديمها توجب أن نقف على ما يريد الحاضر أن يستعيده من الماضي. ومهمّة عناصر الأبنية المحدثة أن تتبنّى أحقية التواصل مع ما هو تقليدي على أن يبقى هذا الاقتراح نسبي إذا ما انعدم انسجام هذه المفردات مع بقية المكونات الفراغية والوظيفية للمبنى الملتصقة به.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الكلمات المفتاحية:
سكن تقليدي مُستدام – استهلاك السكن - صناعة الذاكرة – حفظ السكن/ حفظ الذاكرة.

Résumé :
Le passé de l'architecture est une partie de son essence et de sa manifestation du présent, car la relation proposée entre la nouvelle et l'ancienne architecture exige que nous nous tenions sur ce que le nouveau veut restaurer de l'ancien, et ce qu'il peut atteindre en cas de paradoxe. Peut-être que le retour vers le passé ne s'arrête pas au champ de la mémoire et à la leçon du cadre traditionnel de l'architecture, mais dans de nombreux cas, il sert de moyen efficace pour stimuler les relations dans le présent, et travailler à concentrer sa présence dans le passé du groupe, en tant qu'atout actif et non informé pour que la présence du passé et son apparition reposent sur les stimuli du présent.
En conséquence, l'architecture traditionnelle du sud tunisien (la résidence oasis comme modèle) est une énergie formatrice inhérente à une architecture cachée. Un bâtiment habité par la réalité avec toutes ses dimensions entrelacées et interdépendantes, l'architecture si traditionnelle classait l'habitat, un mode de vie, et démontrait la capacité de s'adapter à l'environnement, en faisant correspondre la forme des édifices avec leur environnement, les besoins sociaux et les exigences fonctionnelles.
Analyser et documenter ce modèle architectural est possible, mais la question se pose: que se passe-t-il après la lecture, l'énumération, la collecte, l'analyse et la documentation? En abordant le problème de la gestion des espaces résidentiels traditionnels, il a été démontré que le succès de l'évaluation de la réalité actuelle de ces unités d'habitation passe par l'identification des défauts et leur résolution.
Le plan de réhabilitation ne vise pas seulement à apporter des solutions, mais offre également des possibilités de stabilisation de ce qui pourrait être après la mise en œuvre de ces solutions. Ce que les ancêtres ont laissé était considéré comme un patrimoine culturel, esthétique, philosophique et créatif, et l'effort scientifique et technique ne pouvait pas vraiment éliminer les expériences et les expériences laissées par les ancêtres, le fait que l'environnement qui s'est formé et s'est formé grâce aux expériences accumulées de nombreuses générations n'a pas été formé en vain, mais il y avait des lois et des coutumes qui régissent le système urbain dans tous ses détails.
Voir cet héritage va au-delà de la nostalgie du passé, pour le contempler avec des visions réalistes. Où est la mémoire maintenant? Quelle est la probabilité d'activer la mémoire de secours sur les roulements du présent?
Des interrogations qui définissent la problématique principale de notre article scientifique, qui est de conclure comment nous pouvons former une vision globale pour comprendre la pensée issue de cette architecture, afin d'établir d'autres possibilités pour traiter ce patrimoine architectural comme un édifice de mémoire vivante. Une architecture qui a réalisé le concept de durabilité au passé pour être un témoin de la compatibilité du logement et des habitants et l'est toujours. Le travail de recherche est une invitation ouverte à la maîtrise du passé, à le reprendre, l'abriter et le renouveler. Ainsi, le désir dans l'architecture moderne est créé de préserver l'ancien et de restaurer dans le nouveau ce qui est ancien, à renouveler et à perpétuer. La relation proposée entre la nouvelle et l'ancienne architecture exige que nous nous tenions sur ce que le présent veut restaurer du passé. La tâche des éléments de

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

construction modernes est d'adopter le droit de communiquer avec ce qui est traditionnel, à condition que cette suggestion reste relative si ce vocabulaire est incompatible avec le reste des éléments spatiaux et fonctionnels du bâtiment qui lui sont rattachés.

Mots clés:
logement traditionnel durable - consommation de logement - fabrication de mémoire - préservation du logement / préservation de la mémoire.

إشكالية البحث:

إن دراسة العمارة السكنية التقليدية يجب أن تنطلق من المعلوم (الحاضر) إلى المجهول (الماضي) من خلال البحث والتقصي في الموجود سكنا والمستور سُكنى، ونقل الحاضر إلى الماضي القريب أو البعيد، لا من أجل المماثلة أو القياس لكن من أجل التقابل والتقاطع الذي يمكن لنا إحداثه في الحقل المعرفي وتتبع حجم ما يمكن لنا استخلاصه من دلالات معرفية تعيننا مستقبلا على وضع المؤشرات اللازمة لما يخص العمارة السكنية عند تحقيق أي عمل معماري معاصر.

أهمية البحث وأهدافه:

لقد سعينا من خلال هذه الدراسة إلى فهم خصوصيات السكن التقليدي بالجنوب التونسي عامة، والفضاء الداخلي لذات السكن بصفة خاصة. فمساكن قرى ومدن الواحة التقليدية طاقة تشكيلية كامنة في معمار مكشوف/متستّر يكتنه الواقع بكلّ تشابكاته وأبعاده. ليفرز المجال لغةَ سكنٍ، وطريقة عيشٍ، وأظهر قدرة على التكيف مع المحيط، ونظرة للحياة التصقت بتضاريس الأرض، بتوافق شكل الحاجات والمطالب الاجتماعية والوظيفية مع الوسط المحيط، وتواصلها الحميميّ مع الموقع.

الاجابة على تساؤلات كهذه تستدعي مستوى من القراءة يتوجب فيه حتما فكّ شفرات المباني التقليدية وذلك بغرض إبراز مخزونها التعبيري وقدرتها على حمل الدلالات. فدراسة المساكن من الممكن لها أن تؤسس لتحليلات ترصد ظواهر اجتماعية تشمل مختلف تمظهرات هذا التشكّل المحدث للمباني السكنية على محمل الواحة بين طرفي المادة، من جهة، والمعنى من جهة أخرى. ذلك أن لغة المباني وحديث الجدران تستطيع أن تفتح حقلا بحثيا قد يسمح بتجاوز الموجود هندسة وممارسة إلى رغبة ومتطلّبات.

كما أن تفعيل السكن الواحي التقليدي بروح معاصرة لا يمنع من طرح بدائل لإعادة الهوية وإمكانية أن تكون العمارة المحلية حلاّ لها، منها؛

1. ضرورة حفظ وصيانة التراث الحضاري والاجتماعي أو تأسيس نوع من التواصل والاستمرارية مع هذا التراث
2. من الواجب على أي بيئة عمرانية قيّمة أن تتجاوب مع المتطلبات الحضارية والاجتماعية لقاطنيها من عادات وتقاليد وقيم ومبادئ
3. ضرورة الاهتمام بمواد البناء التقليدية التي استخدمت في المباني التراثية والتي لها أثر كبير على البيئة، إضافة الى أهمية إبراز العناصر المعمارية والزخرفية في الواجهات التراثية بما يتناسب مع تقنيات البناء الحديث.

منهج البحث:

يقول ابن الهيثم في مقدمة كتابه "المناظر": "نبتدئ في البحث باستقراء الموجودات، وتصفّح أحوال المبصرات، وتمييز خواص الجزئيات، ونلتقط باستقراء ما يخصّ البصر في حال الإبصار، ثم نترقّى في البحث والمقاييس على التدريج والترتيب، مع انتقاد المقدّمات والتحفّظ من النتائج". وباعتبار أن كلّ ممارسة ثقافية هي موضوع حيّ، احتاجت مساكن الواحة التقليدية بالجنوب التونسي إلى دراسة وبحث ميدانيين، لذلك لجأنا إلى طرائق الملاحظة والاستقراء والكشف

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والتأويل، بالاستناد إلى التحليلي البنيوي والظاهري في فهم السكن واستكمال النظرة إلى المعمار وتحليل المنطق الذي يشكّل مفرداته على أنها لغة يتخاطب من خلالها الأفراد.

مقدمة:

تعتبر العمارة التقليدية انتاج معماري غير مهندس في غياب المهندس، فهي تتمّ بواسطة الخبرات المحلية "ويستخدم فيها كلّ ما تنتجه الطبيعة من مواد، وفيها ابتكار لأسلوب التعامل مع البيئة وأقصى محاولات للاستفادة منها، واحترام البيئة المحيطة والتعامل مع عناصر الطبيعة بالتناغم والاندماج والمساهمة وليس بالتصدّي، بالتحدي والمقاومة".[1] وعليه، يستخدم مُستهلك الفضاء (المسكن نموذجا) مداركه وأحاسيسه لتحقيق عمارة توازن بين البيئات الثلاث؛ الأرضية كمصدر للخامات، والجوية كمتوائم مع ذاتيتها من توجيه وتشميس واقتناص الريح، والثالث هي البيئة الاجتماعية من أجل التوافق مع معطيات ما أقرته المجتمعات من معادلة مرهفة للأعراف لقبول العيش المشترك. لذا فالعمارة البليغة هي نص مفعم بالواقعية والموضوعية بتداول معطيات ووسائل الأزمنة والأمكنة من أجل تحقيق غايات تعبر عن قدرة الخلق.

يزخر الجنوب التّونسي بمخزون معماري متميّز، تبنّت عمارته -على تعدّد خصائصها الجغرافيّة- فضائها الطّبيعي ليكون البناء منتجا لمجاله. عمارة "محلّيّة" كانت قادرة على التّجاوب مع المعطيات البيئية لمجالها، هي بعض من المكان خاصّتها سواء أكانت "تشكيلاتها؛ بين أحضان الواحة، على سفح جبل أو وسط الصّحراء. لعلّ هذا النمط من الانشاء على اختلاف مخرجاته (بناء/ حفر/ نقر)، يُعدّ متحفا مفتوحا وذاكرة حيّة، تشكّل عمارتها أهميّة كبرى من الناحية التراثية والثقافية والبيئية، ويمثّل بقائها شاهدا على تفرّدها صناعة وممارسة.

عموما كانت أساليب العمران التقليدي متجاوبة مع البيئة ونابعة منها سواء في الحلول التخطيطية أو الافكار التصميمية أو في مواد البناء المستخدمة أو في المعالجات المناخية. فقد عاش المجتمع الواحي بالبنايات التقليدية طبقاً لنظم وعادات اجتماعية تكوّنت وتطوّرت عبر أجيال مختلفة بناء على خبرة إنسانية متوارثة من حصيلة اجتهادات ومن تجارب ذاتية مشتركة كان للإحساس الفطري دور كبير في خلق هذه التصاميم. لذا نجد ان القرية/المدينة التقليدية تعطي للإنسان الأساس اللاّزم لتشكيل كتلي وفراغي متكامل وتفاعل مكاني متواصل. معمارٌ حقّق مفهوم الاستدامة في الزمن الماضي ليكون شاهدا على توافق السكن والساكن ولا يزال. من هكذا منطلق يدعو عملنا البحثي إلى التمكّن من الماضي، في إعادة استحضاره وإيوائه وتجديده. ومن هنا تتولّد الرّغبة في العمارة المحدثة أن تحتفظ بالقديم وتستعيد في الجديد ما هو قديم ليتجدّد ويستديم. إن العلاقة المقترحة بين جديد العمارة وقديمها توجب أن نقف على ما يريد الحاضر أن يستعيده من الماضي. ومهمّة عناصر الأبنية المحدثة أن تتبنّى أحقية التواصل مع ما هو تقليدي على أن يبقى هذا الاقتراح نسبي إذا ما انعدم انسجام هذه المفردات مع بقية المكونات الفراغية والوظيفية للمبنى الملتصقة به.

إنّ بتطوّر المسكن التقليدي (سكن الواحات بالجنوب التونسي نموذجا)، سواء بالتّحوير المصاحب لفعل التوسّع المفروض على الوحدات أو التجاوز أو التخلّي، يكون قد تخطّى ماديّة الحيّز السكني ليشمل بالتالي خصوصيات الذاكرة المتوارثة، وبالتالي الحفاظ على تفاصيل وجزئيات أفضيته الداخلية.

فماذا عساه أن يحمل المسكن في ارتحاله؟

وكيف سيرسم المسكن ملامحه؟

ألا يكون في استيعاب السّكن للمُحدث انحدار نحو إقصائه لماضيه؟

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

I.السّكن الواحي بين قِدم وحدوث:

يزخر الجنوب التّونسي بمخزون معماري متميّز، تبنّت عمارته -على تعدّد خصائصها الجغرافيّة- فضائها الطّبيعي ليكون البناء منتجا لمجاله. عمارة "محلّيّة" كانت قادرة على التّجاوب مع المعطيات البيئية لمجالها، هي بعض من المكان خاصّتها سواء أكانت "تشكيلاتها:

- **بين أحضان الواحة.**
- **على سفح جبل.**
- **وسط الصّحراء.**

هذا النمط من الانشاء على اختلاف مخرجاته (بناء/ حفر/ نقر)، يُعدّ متحفا مفتوحا وذاكرة حيّة، تشكّل عمارتها أهميّة كبرى من الناحية التراثية والثقافية والبيئية، ويمثّل بقائها شاهدا على تفرّدها صناعة وممارسة.

إن أساليب العمران التقليدي كانت متجاوبة مع البيئة ونابعة منها سواء في الحلول التخطيطية أو الافكار التصميمية أو في مواد البناء المستخدمة أو في المعالجات المناخية**.** لقد عاش المجتمع الواحي بالبنايات التقليدية طبقاً لنظم وعادات اجتماعية تكوّنت وتطوّرت عبر أجيال مختلفة بناء على خبرة إنسانية متوارثة من حصيلة اجتهادات ومن تجارب ذاتية مشتركة كان للإحساس الفطري دور كبير في خلق هذه التصاميم. لذا نجد ان المدينة التقليدية تعطي للإنسان الأساس اللاّزم لتشكيل كتلي وفراغي متكامل وتفاعل مكاني متواصل.

يقدم السكن التقليدي مجموعة من القيم الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية التي حملها عبر مسيرة تشكّله كان قد عايشها ساكنه، وذلك لتحقيق المعادلة بين الشكل والمضمون، بين الجمال والمنفعة، بين المتانة والاقتصاد، بين الأنا والمجتمع، معادلة اعتمدت على التجربة والخطأ المنطلقة من معطيات المحلية بكل ما تحمله من إرث ثقافي واجتماعي وبيئي.

1 تغير النمط وأشكاله:

يمثل النموذج السائد للحوش التقليدي في قرى مدن الواحة اليوم مخبرا لتلاقي **أنماط معمارية متنوعة** تصل إلى التضارب والتذبذب والتردّد بين مرجعيات عديدة تكشف عن أزمة هوية معمارية حيث يلتقي المعمار التقليدي الذي مازال محافظا على البعض من صفاته مع المعمار الوافد والدخيل فيمتزج الاسمنت "بالـجير العربي" والزجاج بالسيراميك والحجارة السميكة بالأجر وتبدّل شكل الأبواب والنوافذ وأحجامها وموقعها في الدار وظهرت في المدينة منازل حديثة لا تمت بصلة إلى المعمار "التقليدي" وتبدلت أشكال تأثيث البيت.

تبيّن من خلال المقابلات أنّ هناك علاقة تأثّر وتأثير بين الدار كفضاء عيش والتحوّلات التي طرأت على مؤسسة العائلة وعلى بنية أدوراها. فالتغيّرات الأولى التي طرأت على ديار الأسر الممتدّة التي وقع استجوابها تمت بإضافة غرفة أو تحسين المطبخ وبيت الاستحمام وإضافة طابق علوي، لكن مع المحافظة على استغلال نفس المدخل الرئيسي للسكن. ثم تلتها مرحلة ثانية اختار فيها المتزوجون الجدد من الأسر القاطنة بهذه الديار بناء أو تسوّغ دار خارج النواة التقليدية.

بعد أن بدأت المفاهيم الاجتماعية ونموذج العائلة الممتدّة التي كان سائدا بالتغيير نحو الاستقلالية ونموذج الأسرة النوويّة، نشأت مشكلة الملكية المفتّتة، حيث اتجهت العلاقات الاجتماعية نحو الانقسام. فاستقلال الأبناء عن آبائهم ورحيل الأب استحالت العديد من المنازل مهجورة، مما أدى بالتالي إلى تردّي الحالة الفيزيائية للأبنية الموجودة وبالتالي اهمالها وعدم الاهتمام بصيانتها لتكون آهلة للسقوط.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولقد شكّلت كذلك مشاكل الميراث عنصرا بارزا في إهمال الديار القديمة أو في دفع ببعض الأسر إلى هجران المدينة العتيقة تجنّبا للخلافات العائليّة التي تصل في بعض الأحيان إلى مستوى التقاضي. وكما لاحظنا من خلال بعض المحاورات أن أمر الاعتناء بدار "الجدود" وصيانتها يقع بالتفاهم وباقتسام التكاليف في حالة الأسر مرفهّة الدخل.

2 إغفال المحتوى:

يُعدّ المكان جزء من ذاكرة الإنسان، ليحمل المكان حقيقة ما هو كان، وما هو كائن الأن وكل ما سوف يكون مستقبلا في ذلك المحتوى المنظوم. فالزمان يمضي تاركا خلفه وقائع وأحداث وإن كانت غير مرئية الآن ولكنها منحوتة في الخريطة العقلية لقارئ كل زمان، يلامسها في دفء الجدران ومقدار الإضاءة وانسجام العناصر بين جدران السكن القديم المحوّر. يتشكل المكان بجزيئاته في أبعاد عقلية وصور شديدة الخصوصية للإنسان، وتبقى الترسبات العميقة لتلك الحالات حتى بعد انقضاء التجربة ومغادرة المكان إذا ما كان السكن المحدث على أرض ومستقرّ جديدين. لتكون الذاكرة الشعبية هي المحرّك المستتر لبناءات الواحة المحدثة.

وفق النتائج المستخلصة من العمل الميداني على أفضية سكنية بـ 17 قرية ومدينة واحية بالجنوب التونسي نستخلص النموذج المألوف في ديار وأحواش قرى ومدن الواحة التي تتكوّن عادة من:

- باب وسقيفة داخلية وأخرى خارجية وهي عبارة عن مدخل يخصّص لاستقبال الضيوف وعزل الفضاء المنزلي عن الأنظار ويكون موازيا أو بعيدا عن باب الدار وذلك حتى لا يرى الزائر تحرّكات النساء.
- فناء أو "وسط الدار" وفيه تجتمع العائلة للسهرات في الصيف وتستعمله ربة البيت لقضاء بعض شؤون البيت من غسيل وإعداد للعولة ومؤونة وذخر العائلة.
- المجلس أو بيت الجلوس المسمات دار، يشرف عادة على وسط الدار وفيه يستقبل الأقارب ويخصص لتناول الطعام وعقد السهرات في الشتاء.
- بيوت للنوم وتحتوي على "سدة" أو "دكانة" أو "مقصورة" (غرفة أو دار)، وهي عبارة عن غرف تستعمل للنوم.
- المطبخ والمستراح.
- بيت خزين لخزن العولة والذخر من زيت وتوابل وموالح ومستخرجات القمح والشعير وغلال وخضر مجفّفة...الخ.
- "الزريبة" وهي عبارة عن مربض للحيوانات من دواجن وبغال وحمير تستعمل للتنقّل إلى مزارع الفلاحين التي تقع بعيدا في تخوم المدينة وأرباضها ومجالها الريفي.

لم تحافظ هذه المكونات للأفضية السكنية الواحية على وجودها الماديّ في المسكن الحديث بقدر ما كان حضورا معنويا. فمع التطوّرات التي شهدتها البلاد والتحولات على جميع المستويات كان التخلّي على منظومة المسكن الواحي التقليدي، ليس فقط بترك القديم من المباني وهجرها، بل بالتفريط في عناصر أساسية في تشكّل السّكن المحلّي. هذا على مستوى الشكل، أمّا على مستوى المضمون فقد بقي ساكن الفضاء المُحدث يتراوح بين قديم مألوف من تصميم وتقسيم وترتيب للأفضية السكنية الداخلية وحديث غير معهود. ومن خلال معالجة اشكالية التعامل مع الأفضية السكنية التقليدية، تبيّن أن نجاح تقييم الواقع الحاضر لهذه المساكن يكون بتحديد مواطن الخلل ومعالجتها. فخطة إعادة التأهيل لا تهدف فقط إلى إعطاء الحلول بل توفر إمكانات تستقري ما يمكن له أن يكون بعد تطبيق هذه الحلول. فما تركه الأجداد يُعدّ ارث حضاري وجمالي وفلسفي وابداعي. والمجهود العلمي والتقني لا يمكن له أن يلغي بحق ما خلّفه الأجداد من تجارب وخبرات، على اعتبار أن البيئة التي جاءت وتشكلت عبر خبرات متراكمة لأجيال عديدة لم تتشكل عبثا، بل كانت هناك قوانين وأعراف تحكم المنظومة الحضرية بكافة تفاصيلها. وقد توقف العمل بهذه القوانين، وأهملت تلك التجارب والخبرات.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عموما، لقد زخر التراث المعماري المحلي بالعديد من القيم والعناصر المعمارية المميزة التي رافقت مسيرة تطوره واستمراريته، وكان لها دورها الهام بثبات هذه الاستمرارية وبوضوح خط تطورها. حيث كان وراء وجود كل عنصر من هذه العناصر فكر معين وفلسفة خاصة به، حرصت على المواءمة بين ثلاث عناصر أساسية هي "البيئة والتقاليد والإنسان، فكانت العمارة مريحة خالية من الشوائب، وعلينا نحن اليوم أن نوائم ما بين تلك القيم والتقدم الحضاري الكبير التي تشهده مختلف المجالات لنصل إلى العمارة المناسبة لنا، والتي تجتمع فيها القيم الروحية والجمالية"[2].

II.الثّوابت والمُتغيّرات في تطوّر المسكن التقليدي:

1 تبعات الماضي وإملاءات الحاضر:

تعدّ قرى ومدن الواحة التقليدية حاملة لمخزون ذاكراتي هام على عدة مستويات اجتماعية منها ودينية واقتصادية تتفاعل فيما بينها وذلك بفضل شبكة من العلاقات المنظورة وغير المنظورة والمدركة وغير المدركة. فهي مختبر اجتماعي ممتدّ حيث الصور والفضاءات علامات تصلح ان تكون موضوع تأويل متعدد الاتجاهات يأخذ بالاعتبار التأثير الذي تمارسه العلامات غير اللغوية (المرئية منها خصوصا) بوصفها حاملة لمعانٍ مميزة بإمكانها أن تختزل العلاقة بين الفضاء وساكنه.

ولذا نجد ان المدينة التقليدية تعطي للإنسان الأساس اللازم لتشكيل كتلي وفراغي متكامل وتفاعل مكاني متواصل حيث تتبنى مراحل الادراك هذه ثلاث حلقات تتمثل؛ الإدراك الحسي والتقييم، والإدراك المعرفي، ينبغي على العمارة توفير محيط ملائم لتشكيل السلوك من خلال تبادل المشاعر الطيبة مع الآخرين وتحقيق مستوى من الحاجات النفسية المهمة كالأمان والخصوصية وتعزيز التفاعل الانساني.

لقد ظن المعماريون أن رفضهم للمباني التقليدية القديمة ووضع أسس حديثة للتصميم معناه أن الناس سوف تغير من تقاليدهم التي ورثوها واستمروا عليها إلا أن الناس دأبوا على تصحيح بيوتهم من الداخل لجعلها تتلاءم مع متطلباتهم الاجتماعية. لذا فإن المنظومات التعبيرية في المسكن المحدث في المجال الواحي هي في حالة تغيير مستمر، والدلائل والأشكال وكذلك المعاني، فقد تتغير هي الأخرى خلال عملية تغير الشكل وهذه التغيرات قد تكون جوهرية أو ثانوية ويؤدي الاستخدام المتكرر لإشارة ما إلى استهلاكها في النهاية والقضاء عليها، وعندما يستهلك الشكل فإنه قد (يفقد معناه)، وبالتالي فإنه ينبذ لأنه لا يعود صالحاً للاستخدام، إلا أن التخلي عن شكل من الأشكال والتوقف عن استخدامه نادرا ما يحدث، إذ أن أي شكل ترسّخ وأصبح مألوفاً لدى مجتمع معين يميل إلى الظهور المرة تلو الأخرى قبل أن يتلاشى، ولكن بعد (إعادة تضمينه معنى) قد يكون إضافياً أو مجازياً، وذلك بحكم مبدأ أو احتياج ما، ويعد تغير المعنى أمراً أكثر شيوعاً وأكثر بكثير من اختفاء الأشكال.

2 العَوْدُ إلى الماضي:

يُعدّ ماضي العمارة بعض ماهيتها وبعض تجلّيها الحاضر. "فمادّة العمارة ليست الحجارة، بل هي إبداع إنشائي مشحون بالإرث الحضاري للمجتمع"[3]. إنّ الشكل المعماري يتحوّل بمرور الوقت إلى جزء من الذاكرة الجماعية المحلية، ولعلّ هذا الشكل خلال تحوّله إلى شكل محلّي، يمرّ بعدد من التغييرات حتى يصل في النهاية إلى شكل مستقرّ يتماثل مع الذاكرة المحلية. فمسارات الهوية مرتبطة بشكل كامل بالعوامل المؤثرة في الشكل المعماري، التي غالبا ما تكسبه معنى. ويمكن أن تحدّد مجموعة عوامل تصنع استقرار الشكل وتحوله إلى شكل محلّي هي: القيم؛ دينية واجتماعية وجمالية وتقنية، والذاكرة؛ فردية وجماعية. إذ أنّ الأشكال المعمارية تكتسب المعاني من خلال القيم التي تشكّل الصورة الثقافية للمجتمع وبالتالي فإن هذه المعاني تصبح جزءا من الذاكرة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومن منظور آخر غالبا ما تمثل الذاكرة المخزن الذي يعود إليه كلّ منّا، سواء أكانت الذاكرة القريبة المدى أم تلك البعيدة المدى. هذا المخزن هو بيت القيم الذي يصحّح نفسه ذاتيا مع كلّ تجربة جديدة وهو مركز الخبرة المتوارثة التي عادة ما نستخدمها في تقييم كلّ جديد يمرّ علينا. هذا التركيب الذهني المعقّد هو الذي يصبح هوية الشكل ويجعل منه شكلا محليا مستقرا.

التوق إلى ماضي الأمكنة حيث تسكن الذكريات وصور الزمان المفارق، هو دعوة إلى التمكّن من الماضي، في إعادة استحضاره وإيوائه وتجديده. ومن هنا تتولّد الرّغبة في العمارة المحدثة أن تحتفظ بقديمها وتستعيد في الجديد من أبنيتها ما هو قديم ليتجدّد. إن العلاقة المقترحة بين جديد العمارة وقديمها توجب أن نقف على ما يريد الجديد أن يستعيده من القديم، وما يمكن أن يبلغه في حالة مفارقته. إن مهمة عناصر الأبنية المحدثة أن تقول جديدا متوفرا على أحقية التواصل مع ما هو تقليدي، وأن تعي نواياها إلى التجديد. هذه الاستعارة تبقى سطحية إذا ما انعدم انسجام هذه المفردات مع بقية المكونات الفراغية والوظيفية للمبنى الملتصقة به.

أتاحت لنا عمليّة التذكر تبيّن مدى ارتباط الذكريات الذاتيّة والشخصيّة بالذكريات الجماعيّة التي تشكل متن الذاكرة الجماعيّة، فتتأسس في تفاعل حركي مع متغيّرات الزمان ومؤثّرات المكان. والدّار بصفتها مجالا يروي سيرة فرد وقصة عائلة وقصة مدينة تعدّ أحسن من مقالات مطوّلة ووثائق مخطوطة[4]، "لتأخذ العناصر المتوارثة قيمة العلامة valeur de signe، وذلك بفضل الدلالة الفينومولوجية للصورة-الذكرى ومادّيّة الأثر كشيء غير محايد، وإنّما مشحون دلاليّا ينكشف عبر استخدامات مضبوطة، بحيث يتداخل الماضي بالحاضر والمادّي بالرّمزي تداخلا تتجلّى فيه الذّاكرة بوصفها رهانا وسيرورة بناء أكثر منها معطى جاهزا ثابتا. من هنا تعدّد مفهوم الماضي القديم وصور الآثار المجسّدة له طبقا لتعّدد الذاكرات وما يحرّكها من رهانات واستراتيجيات، فكلّ ذاكرة، هي بشكل ما خالقة لزمانها، وبالتّالي لماضيها"[5].

يتخذ الماضي صفة الضبط والتنظيم داخل المجتمع، ليكون بمثابة الأصل الذي يتم من خلاله تحديد مجال الحاضر ولا تتوقف هذه النظرة عند مستوى المجتمعات من حيث تقدمها أو تأخرها، بل تكون الفاعليات الحاصلة داخل المجتمع، بمثابة القياس المباشر لمستوى الوعي بالماضي الذي يكون أصلاً للنظرة إلى الحاضر.

يلعب الماضي دوره الواضح في الحاضر، ولا يتوقف الأمر على ملامح تكوين الذات المجتمعي، بل يتخطاه إلى الظهور في صلب ملامح التجديد، لا سيما المظهرية والذوقية منها، فعلى سبيل المثال تعرض التصميمات المستوردة تحت مسمى التجديد لملامح بقايا الماضي، حيث تكون التدخلات المباشرة من قبل الأفراد إلى وضع علامات وإشارات، تفصح عن مدى التقاطع والتداخل. فيكون تصميم المنازل المستمد من طرز موغلة في الحداثة في تضارب مع الذوق التقليدي. يتم التراكب من خلال التعامل مع اللون، والشكل وتقسيم الفضاء الداخلي للمسكن وتهيئته، ما يوقع شاغر الفضاء السكني في ضير الاستخدام. ويتبدى سوء الاستخدام في الأفضية السكنية المحدثة، بطبيعة الأداء والوظيفة للمسكن الحديث. إنه النمط المناسب الذي يفرزه الماضي في صلب الحاضر[6]، والذي يمكن أن ينم عن ملمح التوافق أو التعارض مع مكوّنات التجديد.

إنه الصراع الذي يفصح عن فسحة من المفاوضات مع هذا الآتي الجديد من مواد وطرز وزخارف، ولكن برؤى محدودة يسودها الاستغلال الخاطئ للموروث الشعبي في حضور الجديد. فهم يقوم على خصوصية قوامها الاستغراق في هذا الماضي الذي يتشخصن حتى ليفرض استحقاق وجوده على كل جديد. إنه التداخل المربك الذي يجعل من القديم اسقاطا على الجديد. فعلى الرغم من استناد متساكني الواحة لمخزونهم المعماري في تحوير البناءات الجديدة المقامة إما على أنقاظ القديم أو المشيدة على أرض أخرى (غير بعيدة عن المساكن المهجورة)، إلاّ أن الإصرار على تفعيل اسقاطات الماضي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بالحاضر، يفضي إلى الإخلال الذي يؤدي بدوره إلى الاستنكار والاستهجان، أنه الوعي المجزوء الذي يقف على حافتي الماضي والحاضر، ليبرز مجال الوعي المنقوص الذي يعجز عن التمثل الفاعل والحقيقي زمانياً ومكانياً.

يتوقف التجديد في المجتمعات التقليدية، على هذه الفسحة الخارجية التي يكون مستندها المظاهر. حيث الاعتماد على تعويض النواقص الموجودة من خلال التطلع نحو مزيد من الاستيراد. ومن هذه الفعالية تنشط وظائف اجتماعية أخرى، تكون ملامح خصوصياتها وقد تبدت عند مجال التصادم مع التفاصيل العميقة للذات الاجتماعي، والعمل على تفكيك عرى العلاقات القديمة السائدة فيه. عبر حفز ثقافة الاستهلاك وترسيخ مضامين التطلع نحو المزيد من إدراج عادات وميول جديدة، تكون بمثابة العبء الذي يفرد ملامحه على الملامح العامة للمسكن في صورته النهائية.

لا يمكن الحديث عن نمط واحد من التجديد، فهذا الأخير لا يعدم أن تكون له خصائصه المميزة وفوائده الفريدة وإيجابيات المتعلقة بالوعي. ولعل القفزات الاجتماعية التي باتت تتراء ملامحها على مجتمعنا (ليس فقط المجتمع الواحي بالجنوب التونسي) لا يمكن التغافل أو التغاضي عنها. إذ بدأت مرتكزات التجديد تأخذ شرعيتها ومكانتها الأثيرة والعزيزة لدى الأفراد. وإذا كان الماضي يحضر في الكثير من الأحيان، كنوع من تذكير الأجيال الجديدة الطالعة حيث العناية بالموروث وتجديد المباني القديمة والحرص على استعادة بعض التقاليد المرتبطة بالمهن السابقة. فإن الأمر لا يخلو من محاولة لإدراك هذه الفاصلة، التي تحدد مسار الانتقال بين الماضي والحاضر. والتي يمكن تخصيصها في شعار التوافق بين الأصالة والمعاصرة.

لعلّ العودة إلى الماضي لا تتوقف عند مجال التذكير والعبرة بإطارها التقليدي، بل أنها في الكثير من الأحيان تكون بمثابة الوسيلة الناجعة لحفز العلاقات في الحاضر، والعمل على تركيز وجودها في ماضي الجماعة، كأصل فاعل غير مستجلب أو مستحدث. إنما يكون حضوره وظهوره انطلاقاً مع محفزات الحاضر.

3 آليات الحفظ:

ساهمت أسباب عديدة في صنع التغيير، لعلّ أهمها التدخل الفردي للسكان المحليّين ومساهمة العناصر غير المتخصصة وتأثيرها سلبيّا على المعمار. وفي الاعتقاد العام أن الترميم يتمثل في التصليح الوظيفي وإعادة التشكيل. وهذه الرؤية ناتجة عن غياب الوعي العمراني والثقافة المعمارية. **فما هي خاصيات المعرفة بآليات الحفاظ لاستدامة المعمار كنوعية خاصة؟**

لا شك أن المقصد من الحفاظ هو الصيانة والترميم للحفاظ على القيمة التاريخية للمبنى من التلف لفترة أطول كمعطى يؤرخ للمستقبل. تقتضي عملية الحفاظ، الدراسة والتخطيط والبرمجة: من ذلك تقنيات الرفع الهندسي والتحليل والتشخيص والمعرفة بالمواد والتقنيات... وهي عملية تدخلية هدفها الحفاظ على المعلم. فالترميم هو تخصّص علمي دقيق يضع أسسه في البحث التاريخي وفي التقنيات الحديثة، ليعطي إمكانية قراءة صحيحة وواضحة للأعمال المعمارية والبيئية في مجال واسع من المبنى المنفرد إلى المدينة من غير أن نستثني المناظر الطبيعية والبيئية.

فعلى مصمّم الفضاء أن يجد الصيغة المثلى، في توافقها وانسجامها، مع النسق البصريّ البيئي. فلا يتناول مسألة الترميم بسطحية ودون دراسة واعية للأسس وللكيفية. إذ لا يقتصر الترميم على إزالة المضاف أو إتمام الفراغ الناقص أو إعادة البناء، بل هو مرتبط بحاجة ماسة إلى الحفاظ على المحتوى التراثي والبيئي وإيلاء الاهتمام اللازم بما يكفل استدامة هذا المعمار واستثماره في الثقافة والسياحة.

فالهوية العمرانية للقرية أو المدينة التقليدية هي جزء من الهوية الثقافية للمجتمع، والعمارة جزء جوهري من الثقافة الشعبية. وهي مفهوم دائم التشكل يتوجب أن يوفر التوازن بين الحفاظ على الموروث وبين التجديد والابتكار. إذ إن الخصائص التصميمية المميزة لمساكن قرى ومدن الواحة التقليدية تمثل أحد جوانب هويتها العمرانية، والدعوة هنا إلى

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الحفاظ على هذه القيمة المعمارية وصيانتها من التأثيرات التي تعرضت اليها بسبب الإهمال والهجر، فضلا عن عوامل التهرئة ومسببات التشويه المعماري.

III.صناعة الذّاكرة:

1 تحديد المتطلبات الوظيفية والاحتياجات الاجتماعية للسكن المعاصر:

إن أساليب العمران التقليدي كانت متجاوبة مع البيئة ونابعة منها سواء في الحلول التخطيطية أو الافكار التصميمية أو في مواد البناء المستخدمة أو في المعالجات المناخية. ولعلّ توافق المسكن مع البيئة قد تم تحقيقه وفق استراتيجيتين هما: الحماية والتكيف. الحماية كانت بالحد من تأثير ظروف البيئة الطبيعية القاسية كالمناخ الحار وقلة الرطوبة النسبية في بعض المناطق وارتفاعها في مناطق أخرى، أما التكيف فكان باستغلال الإمكانيات الكامنة لهذه الظروف القاسية والتعامل معها بما يحقق الراحة الحرارية، هناك العديد من المبادئ الأساسية التي استندت عليها عمارة المسكن الواحي التقليدي والتي يمكن مع بعض التعديل والتحوير والتطوير أن تكون مؤشرات دالة للتصميم والبناء في العمارة المعاصرة خاصة في مجال الوحدات السكنية.

لقد عاش المجتمع الواحي بالبنايات التقليدية طبقاً لنظم وعادات اجتماعية تكوّنت وتطوّرت عبر أجيال مختلفة بناء على خبرة إنسانية متوارثة من حصيلة اجتهادات ومن تجارب ذاتية مشتركة كان للإحساس الفطري دور كبير في خلق هذه التصاميم. كما كان للاحتياج والوعي البيئي الاجتماعي دور في حلّ معظم عقبات التصميم لمراعاة المناخ والعادات والتقاليد الاجتماعية، مما أوجد نماذج من المنازل التقليدية الناجحة استمر استخدامها عشرات السنين. ولذا نجد ان المدينة التقليدية تعطي للإنسان الأساس اللاّزم لتشكيل كتلي وفراغي متكامل وتفاعل مكاني متواصل.

يقدم السكن التقليدي مجموعة من القيم الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية التي حملها عبر مسيرة تشكّله كان قد عايشها ساكنه، وذلك لتحقيق المعادلة بين الشكل والمضمون، بين الجمال والمنفعة، بين المتانة والاقتصاد، بين الأنا والمجتمع، معادلة اعتمدت على التجربة والخطأ المنطلقة من معطيات المحلية بكل ما تحمله من إرث ثقافي واجتماعي وبيئي.

ترتبط درجة تحقيق البناء السكني للاحتياجات والمتطلبات الوظيفية والاجتماعية لسكانه ارتباطاً وثيقاً بمستوى الكفاءة العامة للحلّ المعماري، فقد أظهرت الدراسات المعاصرة اهتماماً كبيراً بمعالجة هذه الجوانب في حلول البناء السكني من خلال اقتراح نماذج سكنية متنوعة استندت في بعض خصائصها إلى المسكن التقليدي مستفيدة من كثير من المزايا الاجتماعية والوظيفية لهذا المسكن، وذلك في إطار السعي الدائم لتطوير هذه المزايا والخصائص بما يتلاءم مع المتطلبات العصرية.

لعلّه من الضرورة التأسيس لنتاجات معمارية استناداً الى الموروث لما يمتلكه من صورة ايجابية مرتبطة بالحسّ والذاكرة الجمعية ومن دون نسخ حرفي او تكرار مُملّ لعناصره، بطرح التقنيات لتحقيق التوازن التعبيري التبادلي بين التراث المحلي من جهة وتقنيات العصر من جهة أخرى، بما يضمن إعادة الخط المعماري المحلّي الى مساره الصحيح. وذلك من خلال التأكيد على ما تملكه العناصر والاشكال التراثية من قدرة توليدية لأشكال جديدة تفيد العملية التصميمية والممارسة المعمارية ككل وما تعكسه تقنيات العصر الحاضر.

إن ما يحدث اليوم من تطورات فكرية وتكنولوجية وعلمية شملت جوانب الحياة المختلفة كان لها بالغ الأثر على النتاج المعماري وعلى الحياة الاجتماعية، والثقافية، والفنية فيها، وأصبحت العمارة المعاصرة مجرد انعكاسات لعمارة غربية لها مفاهيمها ورموزها، وأشكالها وإيحاءاتها الخاصة، ولم تعد العمارة التقليدية قادرة على مواكبة معدل اتساع هذه التطورات، فبدأت تفقد استمراريتها، وأخذت بالاختفاء شيئاً فشيئاً، وتأثرت معظم عناصرها المميزة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

2 جدلية الشكل والوظيفة:

تعدّ علاقة الشكل بالوظيفة ليست علاقة مباشرة بل هي علاقة جدلية تعتمد على العنصر الرابط بين هذين المفهومين وهو مستهلك الفضاء السكني بمعنى ساكنه. عموما فإن الشكل ما هو إلا انعكاس للحاجات الانسانية وهو يمتلك حالتين:

- الشكل كمادة: وهي تمثل الخصائص الفيزيائية. وتمثل مجموعة الملامح والتكوينات التي يمكن ادراكها مباشرة كالهيئة واللّون ومواد البناء والملمس، وهي تمثل حالة ترجمة المواد المستعملة وتنظيمها في حالة مستقرة في كيان له حيز من الوجود ويدرك بواسطة الحس الانساني.

- الشكل الدّال (التجريدي): يتمثل بمستوى إدراكي أعمق من السابق، تكون خصائص التعبير للعناصر المرئية للشكل فإذا فهمنا العمارة كلغة، فعناصرها مفردات يمكن ربطها لتكوين الجملة، وتشمل هذه الخصائص الكتلة والفضاء والخصائص ذات المستوى الادراكي الأعمق كالنسب والقياس وأن الخصائص بمفهومها الشامل هي نظام قائم على العلاقات بين أجزاء المادة نفسها ويرتبط الشكل عموما بالنواحي الجمالية والنفعية.

ويكون شكل الفضاء عندما يمتدّ المستوى باتجاه مائل أو عمودي على سطحه وأنه يكون حجما بأبعاده الثلاثة، ويعدّ الشكل (la forme) هو أول صفات الحجوم ويتحدّد من خلال هيئة الخطوط والمستويات التي تعطي حدود الحجم والعلاقات فيما بينها، ويمكن للحجم أن يكون كتلة صلبة أو فارغة.

إن الأشكال الصلدة والفراغات الفضائية تشكلان وحدة المتضادات المكونة لحقيقة الشكل. ويتحدّد شكل الفضاء أولا بالنظام الانشائي المستخدم وعناصره وعلاقته بالفضاءات الأخرى ولكلّ بناية نمط معين في ترتيب هذه العناصر ولكلّ نمط صفات هندسية تنحت أو تفرغ جزءا يماثلها من الفضاء.

ومن المهم النظر إلى العلاقة بين شكل العناصر المكوّنة والمحدّدة للفضاء وبين شكل الفضاء المحدّد، وقد يسيطر أي من الطرفين على هذه العلاقة، غير أنه يبقى دور الطرف الآخر مهما وضروريا. ومن المفيد أن نأخذ بعين الاعتبار ضرورة هذه العلاقة عند استعمال العناصر التصميمية في الفضاء الداخلي[7]. ويمكن إدراك تشكل هذه العناصر من خلال عدة علاقات يمكن تلخيصها بالآتي:

- الشكل والخلفية: أي عنصر يمكن اعتباره شكلا مميزا في الفضاء عندما يبرز أمام خلفية متناسقة معه ومع الأثاث. ما يمنح للشكل وضوحا وهوية وأهمية ضمن الفضاء.
- الاستمرارية: وتعني تواصل العلاقات بين المفردات من خلال الحفاظ على نفس الهيئة واللون.
- التسلسل: وهو استمرارية إدراك المفردات المنظمة ضمن الفضاء.
- التكرار: وهو نوع بسيط من التسلسل يمكن أن يتحقق م خلال تكرار مفردة معينة.
- الإيقاع: هو تسلسل مفردة متكرّرة في فترات محدّدة.
- التماثل: ويمثل تكرارا في إحدى المفردات حول نقطة مركزية أو محور معين، أن التماثل يوفر نظاما ووضوحا للمفردات التي تدخل في تكوينه ويسهل عملية ادراكها وفهمها.

ويضاف إلى ذلك الأهمية السيكولوجية النابعة من الأشكال المختلفة وطريقة تنظيمها من خلال العلاقات فيما بينها وبين مجاوراتها وبينها وبين خلفياتها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

3 متطلبات الوظيفة:

إن أي مبنى يجب أن يحقق غايات ثلاث رئيسية: الموائمة الاستخدامية والمتانة والجمالية.

▪ الموائمة: ومعناها أن المبنى ينشأ لتأمين منفعة وحاجة معينة، فيجب أن يكون مُصمّما لأداء وظيفة في البيئة التي نشأ فيها وبطريقة اقتصادية، وهذا معناه الموائمة الوظيفية للحاجة والهدف.

▪ المتانة: فإنها تفسّر على اعتبار أن عمل المصمّم يُؤدي إلى تأمين الحاجات الحياتية أو الاجتماعية، فيكون متينا ليقاوم المؤثرات الطبيعية.

▪ الجمالية: يعرف الجمال في الأشكال بأنه اتساق جميع المفردات المكونة للشكل والعلاقات بين هذه المفردات لبلوغ درجة الكمال.

ولعلّ تهيئة الأمكنة تتطلب العمل حسب مقتضيات وظائف خصوصية من شأنها أن تساعد على الاستجابة لحاجيات المجتمع المعاصر. فكما يقول *قوستاف نيكولا فيشار* "إن كلّ قاعدة للتهيئة ترتكز على إرادة خلق فضاء صالح للاستعمال وهو ما يعكس رغبة ذاتية في التنظيم غايتها جعل الفضاء وظيفيا".[8]

- <u>الوظيفة والتصميم:</u> عموما يهدف التصميم الجيّد إلى تمكين البناية من تأمين الحاجة والمنفعة المطلوبة. ولتأمين قيام البناية بوظيفتها فإن ذلك يتطلب دراية كافية بالفعاليات والأحياز والأشخاص مستهلكي الفضاء السكني. فالمهم أن يُؤدي التصميم الوظيفة المطلوبة، فلا تكون الوظيفة خالقة وصانعة للشكل ولا يكون الشكل ناسخا للوظيفة وإنما يكون التصميم تركيبا من الاتجاهين يؤمن الوظيفة عامة بأشكال فنية.

فمن الضرورة خلق أبنية بفضاءات وظيفية تحمل شروط الراحة والأمان مع منظومة متكاملة من الخدمات، فالفضاء السكني هو فضاء حاجات الانسان للحصول على علاقة وثيقة في بيئته ولخلق نظام ومعنى للمسكن. حيث أن عملية الابتكار يمكن اخضاعها إلى التصميم النفعي أولا ثم إلى التصميم الجمالي. فالمصمّم الداخلي يُعنى بخلق التنظيم الجمالي باستعمال الشكل واللون والنسيج في نظام مكاني، على أن هذه العناصر التشكيلية ذات علاقة ببعضها وهي جزء منها، نابعة من هيكل البناية ذاتها. "كما أن جمع المقاربتين يسمح لمستعمل الفضاء الداخلي بالاستجابة لرغباته البيولوجية والحسية. ولهذا السبب، فإن الوظيفة والجمالية تبدوان كوجهة محدّدة واحدة تؤكد أهمية تصرفات الانسان وأهمية أنماط عيشه ونظرته للعالم".[9]

- <u>الوظيفة الرمزية</u>: يعتمد جزء منها على استجابة ساكن الفضاء السكني لتصميمه الجديد؛ تصاميم تخضع لمفاهيم الماضي المستجدة بروح عصرية.

إن بتوافر الوظيفية والجمالية والرمزية يمكن القول بأن الفضاء الداخلي المهيأ وفق هذا المنظور، سيكون متشاكلا متجانس "مرئيا – معيشا"، ما يؤمن التوافق بين كل مكونات هذا الفضاء بكلّ مظاهره، وما يولّده من علاقة تأثر متبادل بين الانسان والفضاء الداخلي. "والفضاءات الداخلية بامتداداتها المحدودة و "تمفصلاتها" المسبقة وفراغاتها المقصودة يقع إنتاجها في حقل جدلية "جمالية-وظيفية". وكل نمط لتمثل الفضاء يجب أن تكون الغاية منه تأكيد علاقة التأثر المتبادل بين الجمالية والوظيفية."[10]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

IV.نحو توظيف عناصر العمارة التراثية في سياق معاصر:

يكون التوضيب بتنظيم عناصر التصميم الداخلي les éléments de Design intérieur تبعا لعلاقاتها البصرية التي تنظم الفضاء الداخلي وتعرّفه بطريقة متنوعة نعدّدها كالآتي:

- معالجة السطوح المختلفة: المقصود بالسطوح؛ الجدار والسقف والأرضية، وتكون المعالجة بواسطة اختيار الألوان، والملمس والتزيين والنسق المستعمل على كلّ منها. كلّ هذه العوامل تؤثر على طريقة ادراكنا للفضاء الداخلي.

لعلّ أفضية مساكن الواحة التقليدية تزخر بمخزون تقني هام لمعالجة السطوح على تعدّدها. وتوظيفها سيكون بصريا باتباع الذوق والتناسق المدروسين. إنّ طريقة المعالجات والأفكار التصميمية المقترحة يمكن أن تعكس تراث منسي يوظّف في تنظيم وتجميع عناصر التصميم الداخلي بمواد مستجدة لصنع حيز مرتّب مرضي بصريا ونفسيا.

1 الجدار:

الصورة رقم 1-2: غرفة (قرية قبلي القديمة بالجنوب التونسي)

تسمّى المرماة بالمعجم المحلّي بالجنوب التونسي "بالضَوّايَة". في قبّلي القديمة هي فتحات صغيرة تتراوح بين 20/50صم و20/60صم وُجدت خصّيصًا للتّهوية تعلوها دعامة خشبيّة. كما أنها تُعتبر أحد العناصر الأساسيّة في الغرف وضروريّة لموازنة كمّية الهواء الدّاخلة للغرف بشكل متتابع.

مطبخ مفتوح على غرفة الأكل.

نوافذ صغيرة متتالية

الصورة رقم3: غرفة أكل بسكن معاصر

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لقد تغلب الإبداع المعماري الشعبي على غياب هذه نوافذ وفتحات الشارع، فعمد إلى أعلى الجدار المطل على الشارع فجعل فيها فتحات. لذا تؤدي غرضها الوظيفي، فضلاً عن سمتها الجمالي. ومما يدلل على امكانية تحرر المعمار السكني الواحي التقليدي ليشكل بأدوات بيئته أصالة وعراقة، جمالاً وتجملاً، نفعاً وانتفاعاً. الفتحات الصغيرة لتوفير قدر محدود من الاضاءة والاشعاع.

غرفة نوم.

نوافذ صغيرة الحجم مستطيلة الشكل متتالية بوضعية عمودية.

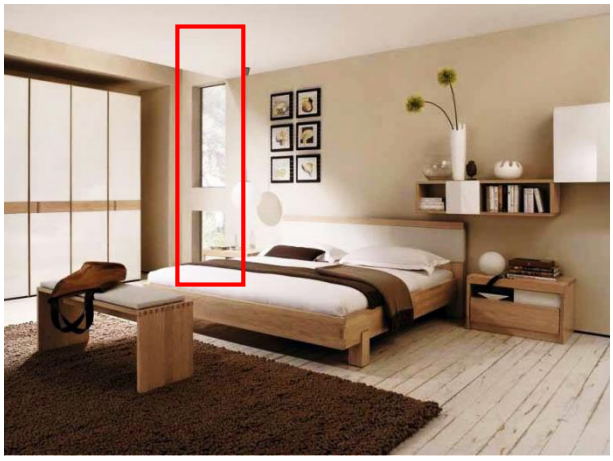

الصورة رقم 4: غرفة نوم بسكن معاصر.

العتبة الأفقية (Linteau) هي العتبة العلويّة للفتحات (الأبواب والنوافذ). وتسمّى السّاكف والتي تُعدّ أثناء عملية البناء ويطلق عليه بالعامّية "الزّهاز".

الصورة رقم 5: مدخل لسكن (قريط تمزرط).

معالجة الحائط بالحجارة البارزة

الصورة رقم 6: صالون بسكن معاصر.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وفي هذا السياق نحن لا ندعو لمجرد التشبث بالتراث دون هدف، بل ندعو إلى تجذير عمارة تجسد تقاليدنا العريقة، وهذا ما يدعونا لفهم تاريخنا مستوعبين التطور في مظاهره الإيجابية، دون نسيان الأساليب الطبيعية التي مارسها أجدادنا للتغلب على الكثير من مظاهر الطبيعة القاسية وإبداع الجمال أينما كان مما أعطى المعنى العميق لمظاهر حضارتنا.

2 السقف:

الصورة رقم 7: سقف لسكن (دار الطرابلسي بجهة "المنزل" بمدينة قابس.

معالجة السقف باستخدام اللوح (solive en bois).

الصورة رقم 8-9: سكن معاصر.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

السقف المفتوح والدرج

تشييد الدّرج بمساكن قرية توجان مع تراكم الحجارة بشكل تصاعدي.

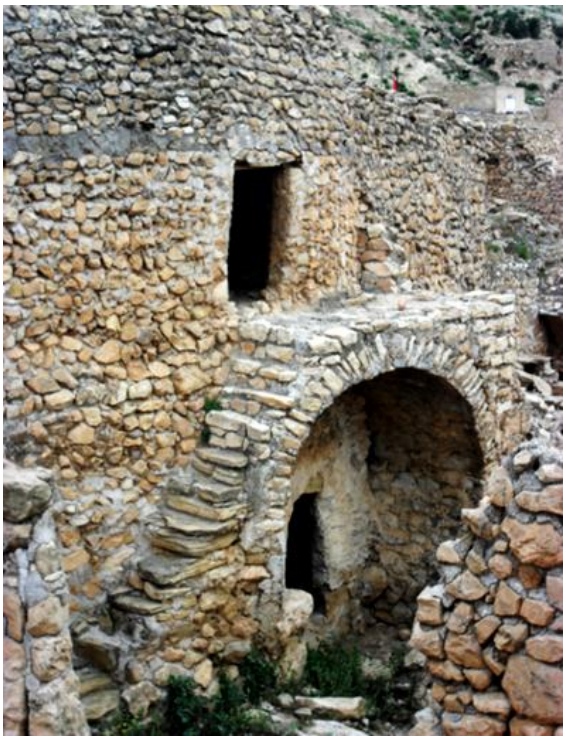

الصورة رقم 10: درج (قرية توجان).

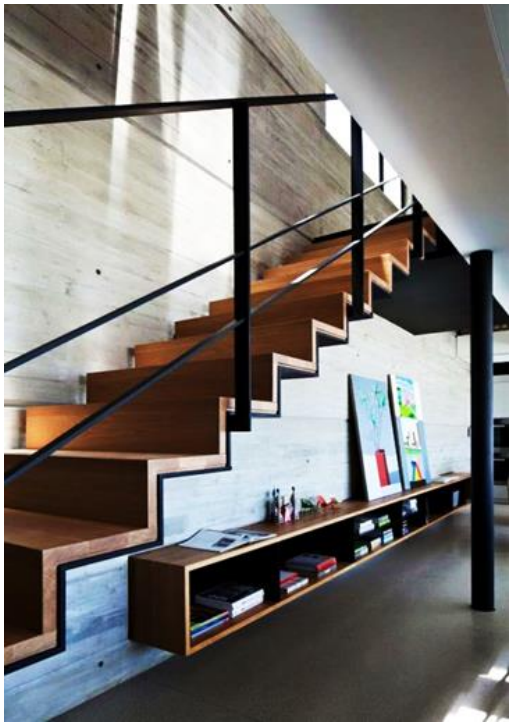

الصورة رقم 11-12: درج بسكن معاصر.

استخدام ألواح الخشب الخام لاستخلاص المفصل الانتقالي بين الفضاءات (السلّم) بشكل مستقيم.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الدرج

الصورة رقم 13: درج (قرية تمزرط).

الدرج المبني بالإسمنت من دون معالجات متداخلة في الفضاء الداخلي. امتداد وتناسق بصري بين الأرضية والحائط ودرجات السلّم.

الصورة رقم 14: درج بسكن معاصر.

غرفة الأكل

تناسق بين الحائط المعالج بالحجارة البارزة والسقف المصنوع بألواح الخشب الصناعي. ترابط مادي وبصري بين عناصر الفضاء الداخلي للوحدة. ومعالجة أرضية الفضاء الداخلي باستخدام الخامات الملائمة لها.

الصورة رقم 15: ركن للأكل بسكم معاصر.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

3 الأرضية:

اقتصر بلاط أرضية مساكن الواحة التقليدية على اختلاف أفضيتها من فناء ودار ومطبخ وغرفة على التربة المبسوطة المسماة "المفرش" أو الاسمنت المعالج بمادة الجير لتحقيق أحادية اللون المتماهي مع الجدران. تتوفر المواد المصنعة الحديثة على مواد هي الأخرى تتوافق مع طراز البلاط المستخدم قديما.

استخدام الحجر الرملي (Grès dans la masse).

الصورة رقم 16-17: أرضية غرفة نوم و مطبخ معاصرين.

بساطة التصميم ونقائه مع إضافة بعض المعالجات على بلاط الأرضية بالمطبخ (سيراميك) وشحنها بأشكال هندسية ونباتية متنوعة بألوان تُرابيّة. فأجدادنا أبدعوا الجمال ببساطة الطرح.

4 شكل وترتيب الأثاث:

يمكن تعريف جزء من الفضاء الداخلي بوساطة قطعة أثاث واحدة أو أكثر. فبالرغم من بساطة الأثاث المستخدم بمساكن الواحة التقليدية فإنه يحتوي على عناصر توظيفية وتشكيلية هامة يمكن استثمارها في المنزل أو الشقة المعاصرين.

- الأثاث الثابت: يشمل السدّة والدكانة والمرفع.

غرفة نوم.

إقامة السرير على دكانة غائرة بالحائط من مادة الخشب.

الصورة رقم 18: غرفة نوم معاصرة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الصورة رقم 19: غرفة نوم (شنني تطاوين).

الصورة رقم 20: غرفة نوم أطفال معاصرة.

توظيف السدّة والدكانة في غرفة نوم

مرفع

الصورة رقم 21: مرفع بغرفة معيشة (قرية سوق الأحد بمدينة قبلي).

مرفع

سدّة

الصورة رقم 22: غرفة أطفال بسكن معاصر.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إن تصميم الأثاث يجب أن يوفر الراحة الفيزيائية. ويرتبط مفهوم الراحة مع طبيعة الفعالية التي يقوم بأدائها. كما يؤثر عند استعمالنا لقطع الأثاث طريقة ترتيب الأثاث حسب مجموعات تعتمد في تنظيمها على وحدة قياسية معينة تسهل عملية ترتيبها وتشكل أكبر استمرارية ممكنة منها والاستفادة من الفضاء قدر الامكان.

الطابق الأوسط.

الصورة رقم 23: Mezzanine بسكن معاصر.

توظيف المخزن الذي يحتلّ موقعا فوق الركن المخصّص للنوم بتجهيز طابق الاوسط (Mezzanine) بمكتب وماكن للاستراحة ما يمكن من استغلال محكم للحيز المكان.

- أثاث متنقل: "البنك" والصندوق.

غرفة المعيشة.

"البنك" وهو المقعد الطويل

الصورة رقم 24: ركن للجلوس بسكن معاصر.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إلى جانب المقعد الذي حافظ على وظيفته في المسكن المعاصر، فإن "صندوق الدّبش" كان له حضوره لكن مع تحوير في الوظيفة ليكون طاولة.

- المفروشات: "المضرّبة" والكليم والمرقوم والحصير.

قاعة جلوس.

"المضرّبة" هي حاشية من الصوف الطبيعي "تُصمّرُ" بالقماش وظّفت بأسلوب جديد.

الصورة رقم 25: غرفة معيشة بسكن معاصر.

إن العناصر البصرية الظاهرية التي تشكل الحافات الخارجية لكتلة الأثاث من خط وشكل وخامات ولون ونسيج، هي الأساس المعبّر عن الحالة الحسية التعبيرية الحسيّة والجمالية.

الصورة رقم 26: غرفة نوم (قرية المطوية بمدينة قابس).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

غرفة المعيشة والشرفة.

الصورة رقم 27-28: توظيف المرقوم

توظيف المرقوم بما يحمله من أشكال هندسية ورموز وألوان كمفرش على أرضية الغرفة.

الصورة رقم 29-30: أفضية سكنية معاصرة.

إلى جانب استخدام المرقوم كبساط فإنه قد تجاوز وظيفته فيبتدع وسائد تحمل نفس النقوش والألوان وخاصة الأشكال الهندسية أهمها المثلث والمعين. ولئن تغيرت بعض الألوان فإن ذلك لا يمنع من محافظة المرقوم على روحه التقليدية التي يحدثها البساط بأسلوب معاصر.

أمثلة لبساطات.

الصورة رقم30-31: بساطات معاصرة.

الخطوط المنكسرة المتكرّرة والمتتالية بلونها الأسود قد ساهم في بروزها اللّون الأبيض للخلفية، والعكس كذلك.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

استخدام المرقوم في فضاء معاصر.

كليم قفصي

الصورة رقم 32: كليم قفصي (مدينة قفصة)

الصورة رقم33-34: أفضية سكنية معاصرة.

ان المنسوجات التقليدية سواء المعقودة منها أو ذات الخيوط المتقاطعة تشكل مرجعا تراثيا لابتكارات جديدة تتماشى وتوجهات التزويق العصرية.

الحصيرة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الصورة رقم 35-36-37-38: الحصيرة بأسلوب مغاير.

استغلال الحصيرة كعنصر للتزويق فيمكن أن تكون الإضافة بتغيير الشكل المتداول والمعمول به من الشكل المستطيل إلى شكل الدائرة مثلا ولما لا توظيف الألوان.

▪ الزخرفة: الفضاء الداخلي للسكن المعاصر هو مجال مفتوح لاحتضان الزخارف التي أجاد بها سكن الواحة التقليدي. فالتناسق الزخرفي يوفر توازنا بين العناصر الأفقية والعمودية المكوّنة لها، ولعلّ القدرة على استغلال هذا المخزون يكسبه قيمة مضاعفة.

اللوح الأمامي للسرير.

توظيف مفردات تقنية التشبيك المستخدمة في سكن الحفر بأسلوب النقش الغائر على اللوح.

الصورة رقم 39: فضاء داخلي لغرفة (قرية تمزرط بمدينة قابس).

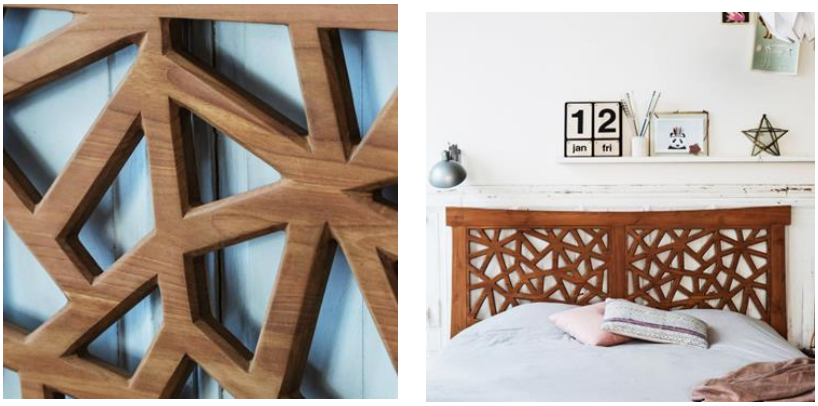

الصورة رقم 40: غرة نوم بسكن معاصر.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

خاتمة:

لقد أتاحت لنا دراسة تشكيلات هذه العمارة المحلّية من تبيان قدرة هذه المراكز الداخلية على انتاج وتطوير فن معماري مخصوص. كما تبين لنا أن العمارة التقليدية إنتاج معماري تلقائي مشروط، فهي تتمّ بواسطة الخبرات المحلية "ويستخدم فيها كلّ ما تنتجه الطبيعة من مواد، وفيها ابتكار لأسلوب التعامل مع البيئة وأقصى محاولات للاستفادة منها، واحترام البيئة المحيطة والتعامل مع عناصر الطبيعة بالتناغم والاندماج والمساهمة وليس بالتصدّي، بالتحدي والمقاومة". ويستدعي الفعل قدرات تصميمية أساسها الخبرات المتراكمة المتمثلة في الارث المهاري والتقني. ويتشكل الفضاء تدريجيا من خلال تفاعل التجارب المتراكمة التي تختزل بعضها البعض بالتكامل والمواصلة.

إن منهجية عمل البنائين المحليين تبدوا متأصلة بشكل وثيق في التقاليد، إذ أن دور التقاليد هو رعاية العمارة وتقوم العمارة برعاية البيئة التي تحمي التقاليد. فالقراءة المتأنية للعلاقة النظرية بين التقاليد المعمارية والبيئة تعدّ أساسية لمعرفة تبعات هذا التشكل المميز. والتقاليد كجانب اجتماعي ثقافي تمثل ركيزة هوية المجتمع. فإذا ما تمّ استيعاب العمارة المحلية كعمارة تكاملية نجد أن الشكل المعماري التقليدي هو وليد اشترك كافة أفراد المجتمع في تشكله عبر الزمن، وهذا بالتالي يسهم في تحقيق الهوية الجماعية عمرانيا، اشتركت في رسم ملامح واضحة للبيئة العمرانية لها، بنجاح العمارة المحلية.

لعلّ البحث في إشكالية انتاج عمارة محلية وتجاوز ماديتها دعوة للبحث في الذاكرة وما تحمله من رموز. فهندسة البناء التقليدي ليست مجرّد تجسيد مادي لتصوّر ما، فعندما تحدّد أماكن فإنها تجعل منها مستوعبا رمزيا. وقبل أن تكون الهندسة أداة تقنية للبناء، فإنها محمل من الرموز التي يمكن تشفيرها في تعابير كونية أو غيبية.

بناءات تأتي أشكالها من مجالها، ترثها فتُورثها، تتعلّم منها، تعيد تشكيلها في واصل وديمومة تدعو إليهما نيّة الظاهرة في البقاء، فتلجأ إلى البحث في الذاكرة صورتها المتوارثة. فتعتمد العمارة التقليدية على المهارات المحلّية للتعبير عن ذاتها في التأقلم مع مجالها لتحقيق حاجياتها حسب عادات وتقاليد المجموعات البشرية التي تفرزها على المستوى العام كظاهرة لعمارة عضوية. وعلى المستوى الخاص، كانت العمارة التقليدية بداية لمشروع (نظري/تطبيقي) ضمن سياق تجديد لصورة عمارة الواحة "المستحدثة" بملامح عمارة الواحة الموروثة فكريا وعمليّا.

المراجع:

الكتب

1 بونتا، خوان بابلو، العمارة وتفسيرها، ترجمة: سعاد عبد العلي مهدي، دار الشؤون الثقافة العامة، بغداد، {1996}..
1 bablu , aleamarat watafsiruha , trjmt: suead eabd alealiu mahdi , dar alshuwuwn aleamat , baghdad , {1996} ..
2 الباشا، حسن، موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، المجلد الأول. بيروت، أوراق شرقية للطباعة والنشر، {1999}.
2albasha , hasan , mawsueat aleamarat walathar walfunun al'iislamiat , almujlid al'awlu. bayrut , 'awraq sharqiat liltabaeat walnashr , {1999}.
3 حمدان، محمد زياد، تخطيط المنهج: كتاب للدارسين والمشتغلين في الصناعة المنهجية ، الدار العربية للكتاب، بيروت، {1985}.
3hamdan , muhamad ziad , takhtit almnhj: kitab lilddarisin walmushtaghlin fi alsinaeat almanhajiat , aldaar alearabiat lilkitab , bayrut , {1985}.
3 مالك، رئيف، هندسة المعمار الداخلي: مقاربة علمية-بيداغوجية، مركز النشر الجامعي، {2007}.
3malik , rayiyf , handasat almuemar aldaakhili: muqarabat eilmit-bidaghwjit , markaz alnashr aljamieii , {2007}.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

5 صولة، عماد، "التراث الأثريّ بتونس أمام رهان الذّاكرات"، مجلة إنسانيات (المجلة الجزائرية في الانثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية)، العدد 57-58، {200

4sawlat , eimad , "altarath alathry bituns 'amam rihan aldhdhakrat" , majalat 'iinsaniaat (almajlat aljazayiriat fi alainthirubulujia waleulum alaijtimaeiat) , aleadad 57-58 , {2000}.

6 بنكراد، سعيد، مدخل الى السيميائيات السردية، دار تانسيفت، مراكش {1994}.

5binkrad , saeid , madkhal 'iilaa alsiymiayiyaat alsardiat , dar tansifat , marrakish {1994}.

المراجع الأجنبية:

1 Ltd, Elsevier, L'architecture vernaculaire et la conception régionale ; processus culturel et de la réponse environnement, 2009.

2 Gherardi, Sophie, dedans/ dehors, dans de toit à moi : mille et une façon d'habiter, dans « Courrier international », Hors-série : maison, octobre- Novembre- Décembre 2004.

3 Gustave-Nicolas Fisher in, la psychologie de l'espace, op. cit.

---

[1] Elsevier Ltd,(2009). L'architecture vernaculaire et la conception régionale ; processus culturel et de la réponse environnement, , page 39.

[2] الباشا، حسن، (1999). *موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية*، المجلد الأول. بيروت، أوراق شرقية للطباعة والنشر، الصفحة 211.

[3] بابلو، خوان بونتا، 1996(*العمارة، وتفسيرها*). 39العامة، بغداد، الصفحة الشؤون الثقافة دار مهدي، العلي عبد سعاد ترجمة.

[4] Gherardi, Sophie, *dedans/ dehors, dans de toit à moi : mille et une façon d'habiter,* dans « Courrier international », Hors-série : maison, octobre- Novembre- Décembre 2004.

[5] صولة، عماد، (2000). *"التراث الأثريّ بتونس أمام رهان الذّاكرات"*، مجلة إنسانيات (المجلة الجزائرية في الانثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية)، العدد 57-58، الصفحة 58.

[6] بنكراد، سعيد، (1994). *مدخل الى السيميائيات السردية*، دار تانسيفت، مراكش، ص 22.

[7] لمزيد التعمق في قراءة الفضاء الداخلي ودراسة العلاقة بين الشكل والوظيفة والجمالية التطرق لكتاب: "هندسة المعمار الداخلي: مقاربة علمية–بيداغوجية" لرئيف مالك، كذلك؛ "ألف باء التصميم الداخلي" لنمير قاسم خلف البياتي.

Aussi; « vie des formes » de Focillon, et « De la forme au lieu, une introduction à l'étude de l'architecture » de Van Meiss (P.).

[8] Gustave-Nicolas Fisher in (1987). *La psychologie de l'espace*, op. cit. Page 46.

[9] مالك، رئيف، (2007) . *هندسة المعمار الداخلي: مقاربة علمية–بيداغوجية*، مركز النشر الجامعي، الصفحة 28.

[10] مصدر سابق، الصفحة 113.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com